١

خراب أورشليم

« إِنَّك لَوْ عَلِمْت أَنْت أَيْضاً، حَتَّى في يَوْمك هذَا، مَا هُوَ لسَلاَمك! وَلكن الآنَ قَدْ أُخْفيَ عَنْ عَيْنَيْك. فإنهُ سَتَأْتي أيامَ وَيُحيطُ بك أَعْدَاؤُكَ بمتْرَسَةَ، وَيُحْدقُونَ بكَ وَيُحَاصرُونَكَ منْ كُلِّ جهَةَ، وَيَهْدمُونَك وَبَنيكَ فيك، وَلاَ يَتْرُكُونَ فيكَ حَجَرًا عَلَى حَجَر، لأَنَّكَ لَمْ تَعْرفَي زَمَانَ افْتقَادَك » (لوقا ١٩: ٤٢-٤٤).

نَظر يسوع إلى أورشليم من علىَ قمة جبل الزيتون. كان المنظر المنبسط أمَامه جميلاً وساكناً. كان زمن عيد الفصح، وقد اجتمع هناك بنو يعقوب قادمين من كل البلدان لإحياء عيدهم القومي العظيم. ففي وسط الحدائق والكروم والمنحدرات السندسية الخُضر التي نصبت فيها خيام المعيدين ارتفعت التلال المسطحة والقصور الفخمة وحصون عاصمة العبرانيين العظيمة، فبدت ابنة صهيون في عز كبريائها وكأنها تقول: « أَنَا جَالسَةٌ مَلكَةً .... وَلَنْ أَرَى حَزَنًا. » وإذ كانت تحس بجمالها كانت تحسب أنها آمنة وتتمتع برضى السماء، كما كانت عندما تغنى الملك الشاعر قائلاً: « جَميلُ الارْتفَاع، فَرَحُ كُلِّ الأَرْض، جَبَلُ صهْيَوْنَ. فَرَحُ أَقَاصي الشِّمَال، مَدينَةُ الْمَلكَ الْعَظيم » (مزمور ٤٨: ٢). وقد بدت لعيون الناظرين مباني الهيكل الفخمة، وسطعت أشعة الشمس الغاربة على جدرانه المرمرية البيضاء كما تألقت من البوابة الذهبية والقبة والبرج. وإذ كانت « كَمَال الْجَمَال » بدت كأنها فخر الأمة اليهودية. فَمن من بني إِسْرَائيل يشاهد ذلك المنظر ولا تسري في جسمه

وقلبه هزة الإعجاب! ولكن يسوع كانت بقلبه أفكار تختلف عن ذلك اختلافا عظيماً: « وَفيمَا هُوَ يَقْتَربُ نَظَرَ إلى الْمَدينَة وَبَكَى عَلَيْهَا » (لوقا ١٩: ٤١). ففي وسط فرح الجموع وهم يحيونه في دخوله الظافر ويلوحون بسَعَف النخل، وهتافات الفرح تتعالى وتردد التلال صداها، وآلاف الأصوات تنادي به ملكاً، غمر نفس فادي العالم حزن مفاجئ غامض. فذاك الذي هو ابن اللّٰه ومنتظَر إسْرَائيل، والذي بقدرته قهر الموت وأخرج الموتى من قبورهم، كان غارقاً في دموعه ليس بسبب حزن عادي بل بسبب ألم شديد لم يمكنه كبته.

ولم يكن السيد يبكي على نفسه مع أنه كان يعرف جيداً إلى أية نهاية مخيفة سينتهي طريقه. كان أَمَامه بستان جثسيماني، مشهد آلامه الشديدة القادمة. وكذلك كان يرى باب الضأن الذي لمدى قرون طويلة كانت تمر منه آلاف قطعان الغنم لتقدَّم ذبائح، والذي كان مزمعاً ان يفتح له عندما يكون « كَشَاة تُسَاقُ إلى الذَّبْح » (إشعياء ٥٣: ٧). وكانت جلجثة، مكان الصلب، غير بعيدة من ذلك المكان. فعلى الطريق الذي كان المسيح مزمعاً أن يسير فيه لا بد أن يقع رعب ظلمة داجية إذ يجعل نفسه ذبيحة إثم. ولكن تأمله في هذه المشاهد لم يكن هو الذي القى عليه ظلام الحزن في تلك الساعة، ساعة الفرح. فلم يكن تشاؤمه من عذاباته، التي هي فوق طاقة البشر، هو الذي القى ظلاله على نفسه المنكرة لذاتها، بل لقد بكى على الآلاف من أهل أورشليم المقضي عليهم بالهلاك. بكى على عمى أولئك العصاة الذين أتى ليباركهم ويخلِّصهم.

محبة أب

إن تاريخ حقبة من الزمن تربو على ألف عام فيها أغدق اللّٰه على شعبه إحسانات عظيمة ورعاية ساهرة تمتعت بها تلك الأمة المختارة كان ماثلاً أَمَام عيني يسوع. فقد كان هناك جبل الْمُريَّا حيث أوثق ابن الوعد ليوضع على المذبح ذبيحة طائعة خاضعة — كرمزَ لذبيحة ابن اللّٰه. وهناك تثبَّت لأبي المؤمنين عهد البركة والوعد المجيد بمجيء مسيا (تكوين ٢٢: ٩، ١٦-١٨). وهناك اشتعلت نار الذبيحة صاعدة إلى السماء من بَيْدَر أُرْنَانَ فمنعت سيف ملاك النقمة عن إهلاك المدينة (١ اخبار ٢١) — وهي رمز ينطبق على ذبيحة المخلص وتشفعه في الأثمة. لقد أكرم اللّٰه أورشليم من دون مدن الأَرْض كلها. والرب « قَدِ اخْتَارَ صِهْيَوْنَ. اشْتَهَاهَا مَسْكَنًا لَهُ » (مزمور ١٣٢: ١٣). ففيها

نطق الأنبياء القديسون برسائل إنذارهم أجيالاً طويلة. وفيها كان الكهنة يلوّحون بمباخرهم فكانت سحب البخور تصعد أمَام اللّٰه مصحوبة بصلوات القديسين. وفيها كانت دماء الحملان المذبوحة تقدم كل يوم مستبقة مجيء حمل اللّٰه. وفيها أعلن اللّٰه حضوره في سحابة المجد فوق كرسي الرحمة (غطاء التابوت). وهناك ارتكزت قاعدة السلّم السرية التي تصل الأَرْض بالسماء (تكوين ٢٨: ١٢؛ يوحنا ١: ٥١) — وهي تلك السلم التي كان ملائكة اللّٰه ينزلون ويصعدون عليها والتي فتحت للعالم الطريق إلى قدس الأقداس. فلو كان بنو إِسْرَائِيل كأمة قد ظلوا على ولائهم للسماء لكانت أورشليم قد ثبتت إلى الدَهر كَالمدينة المختارة من اللّٰه (إِرْمِيَا ١٧: ٢١-٢٥). لكنّ تاريخ ذلك الشعب الذي قد أغدق اللّٰه عليه سيولاً من نَعَمه واحساناته كان سجلاً للردّة والعصيان. فلقد قاوموا نعمة السماء وانتهكوا امتيازاتهم وازدروا بالفرص السانحة المتاحة لهم.

ومع أن بني إِسْرَائِيل « كَانُوا يَهْزَأُونَ بِرُسُلِ اللّٰه، وَرَذَلُوا كَلاَمَهُ وَتَهَاوَنُوا بِأَنْبِيَائِه » (٢ أخبار ٣٦: ١٦) فقد ظل يعلن نَفسه لهم قائلا: « الرَّبُّ إِلهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ » (خروج ٣٤: ٦). وعلى رغم رفضهم المتكرر فقد ظلت رحمته تدافع عنهم. فبمحبة شفوقة تفوق محبة الأب للابن الذي يرعاه « أَرْسَلَ الرَّبُّ إِلهُ آبَائِهِمْ إِلَيْهِمْ عَنْ يَدِ رُسُلِه مُبَكِّرًا وَمُرْسِلاً لأنه شَفِقَ عَلَى شَعْبِه وَعَلَى مَسْكَنِه » (٢ أَخبار ٣٦: ١٥). فلما لَم يُجد الاحتجاج ولا التوسل ولا التوبيخ أرسل إليهم أعظم هبات السماء، لا بل سكب كل السماء في تلك الهبة الواحدة.

لقد أرسل ابن اللّٰه نفسه لكي يتوسل إلى تلك المدينة القاسية القلب. إنَّ المسيح هو الذي أخرج أمة العبرانيين من مصر ككرمة جيدة (مزمور ٨٠: ٨) ويده هي التي طردت الأمم من أمَامها. وقد غرسها « عَلَى أَكَمَةٍ خَصِبَةٍ » وبرعايته الحارسة أحاطها بسياج وأرسل عبيده للعناية بها. وها هو يصرخ قائلاً: « مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضاً لِكَرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ؟ » ومع أنه إذ انتظر من كرمه « أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا فَصَنَعَ عِنَبًا رَدِيئًا » (إشعياء ٥: ١-٤) ظل يرجو بلهفة أن يجد فيه ثمراً فأتى بنفسه إليه لعله ينجو من الدمار والهدم. فنقب حول الكرمة وشذبها وبذل لأجلها كل ما في طوقه من اهتمام ورعاية. ولم يكل من بذل الجهود لينقذ هذه الكرمة التي هي غرس يمينه.

خلال ثلاث سنين ظل رب المجد والنور يدخل ويخرج بين شعبه. لقد « جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ »، « أشفي

المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون» (أعمال ١٠: ٣٨؛ لوقا ٤: ١٨؛ متى ١١: ٥). وقد شملت دعوته الرحيمة كل الطبقات على السواء، وهي التي يقول فيها: « تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨).

قلوب متحجرة

ومع أنهم وضعوا عليه شراً بدل خير وبغضاً بدل حبه (مزمور ١٠٩: ٥) فقد ظل دائباً في القيام برسالته، رسالة الرحمة. ولم يطرد أبداً إنساناً طلب نعمته. وإذ كان يجول من مكان إلى آخر لا يجد مبيتاً يأوي إليه، ولما كان نصيبه العار والفقر عاش لكي يخدم حاجات الناس ويخفف ويلاتهم متوسلاً إليهم أن يقبلوا هبة الحياة. فأمواج الرحمة التي صدتها تلك القلوب المتحجرة بعيداً عنها عادت إليهم بقوة إشفاق ومحبة لا يمكن التعبير عنهما. لكنّ أمة إِسْرَائِيل ارتدت عن أخلص صديق وأعظم معين. وقد ازدروا بتوسلات محبته ورفضوا مشوراته وسخروا من إنذاراته.

كانت ساعة الرجاء والغفران موشكة على الانقضاء، وكأس غضب اللّٰه المؤجل طويلاً كادت تمتلئ، والغيمة التي ظلت تتجمع مدى أجيال العصيان والتمرد، وقد صارت سوداء جداً تنذر بالويل والثبور، كانت توشك أن تنفجر على تلك الأمة الآثمة. وذاك الذي كان يستطيع وحده أن يخلصهم من المصير المرعب المحيق بهم احتقر وأهين ورُفض، ولسوف يُصلب بعد قليل. وحين يعلق المسيح على صليب جلجثة فإن يوم إِسْرَائِيل كأمة منعم عليها ومباركة من اللّٰه سيكون قد انقضى. إنَّ هلاك نفس واحدة هو كارثة تصغر أَمَامها كل أرباح العالم وكنوزه. ولكن إذ نظر المسيح إلى أورشليم تمثل أَمَامه هلاك مدينة كبيرة واسعة وأمة برمتها — وهي المدينة نفسها والأمة نفسها التي كانت قبلاً مختارة من اللّٰه وكنزه الخاص.

بكى الأنبياء بسبب ردة إِسْرَائِيل والدمار المخيف الذي حل بهم. وتمنى إِرْمِيَا لو تكون عيناه ينبوع دموع لكي يبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبه حزناً على قطيع الرب الذي أُخذ أسيراً (إِرْمِيَا ٩: ١؛ ١٣: ١٧). إذاً فكم كان عظيماً حزن ذاك الذي شملت نظرته النبوية لا سنين فقط بل دهوراً! لقد رأى الملاك المهلك مجرداً سيفه على تلك المدينة التي ظلت مسكنا للرب حقبة طويلة